مهَام المكرَّس السبعة وفوائد رسالته في أش ٦١: ١–١١

مقدمة

في الفصل ٦١ من سفر أشعيا، يخبر النبي عن قصَّة دعوته الشخصيَّة. أسلبوه متأثرٌ كثيرًا بأشعيا الثاني (٤٠–٥٤)، والنصّ (أش ٦١: ١–١١) قريبٌ جدًا من أناشيد عبد يهوه المتألِّم. هذا ما يدلّ أنّ الكاتِب هو قارئٌ حَذِر، مُلِمٌ بمعرفة أدبية واسعة لنصوص أشعيا الثاني، التي استوحى منها ليُفسِّر واقعه الشخصيّ.

"روح الربّ عليّ مسحني وأرسلني". تذكِّرنا إشارة المسحِ هذه بوضع اليد الكهنوتيّة والتحضير المباشر الذي يسبق إرسال المكرَّس لأجل إتمامِ مهمَّةٍ هامّة، مهمّة إعادة بناء الشعب. إنّه روح الرب الذي يحوِّل روح المكرَّس ويكلِّفه ليحوِّل بدوره أرواح الناس، ومعلنًا عن قُربِ هذه العمليَّة الجديدة. لكن ما هي المهمّات التي على المكرَّس أن يقوم بها إزاء إرساله، وما هي فوائد رسالته؟

١. الإطار التاريخي للنصّ (أش ٦١: ١–١١)

الأفق التاريخي الذي يدور حوله الكاتب هو الجماعة اليهودية العائدة إلى أورشليم بعد المنفى. يدور اهتمامُ الكاتبِ إذًا حول مدينة أورشليم، التي توجد في حالةٍ يُرثى لها، ولكن تنبأ لها بمستقبلٍ رائع. ما زال الهيكل مهدومًا وتبدو إعادة إعماره أمرًا صعبًا؛ العائدين هم فريسة لانعدام الثقة والصراع، وعليهم، أكثر من ذلك، أن يواجهوا صعوباتٍ أخلاقية ودينية، في وقتٍ استسلم العديد من اليهود إلى الوثن ورؤساء الشعب غير منسجمين وغير مبالين.

ليست الفصول الأخيرة من كتاب أشعيا عمل كاتبٍ واحد، بل مجموعة متأتِّية من الموارد التي جُمعت في عصور مختلفة، وتتألّف من أساليب واصطلاحات مختلفة تعكس تفكير العديد من التيّارات الدينيّة والروحيّة: يصعب، بالتالي، التكلُّم عن شخصٍ تاريخيّ تُنسب إليه كلّ تلك الفصول. مع هذا، تمكِّن الوحدة النسبيّة من تصوُّر شخصيّةٍ تاريخيّة لنبيٍّ في مرحلة ما بعد المنفى، الذي لعب، على الأقل، دورًا هامًا في جمع المعلومات والصياغة. وبالتالي، يمكن تصوُّر أشعيا الثالث كمرشدٍ روحي للعائدين، وكراعٍ للنفوس، وكشاعرٍ للتجديد: أراد من خلال عمله الأدبي، قبل كل شيء، رفع معنويات الناس من الاضطهاد والإحباط.

تشابه الأسلوب مع أش ٤٠–٥٥، يؤدي بالقارئ إلى التفكير بتلميذٍ لأشعيا الثاني، أو لمعجبٍ به عمَّته روح المعلّم النبيلة. بعد العودة إلى الوطن، كان لديه خطَّة إكمال عمل المعلِّم وتنفيذه. كان العائدون، في الواقع، في أزمةٍ إيمانيَّة، لأنّ وعود نبيّ المنفى لم تتحقَّق: كانت التجربة الكبيرة قراءة الحالة الكئيبة الحاليّة كامتحانٍ معاكِس لأمانة الله، وبالتالي، التخلي عن العهد باحتقاره. في هذا الوضع الخطير، حاول العديد من الكتّاب، في وقتٍ قصير، إعطاء

تفسيرٍ جديد لوعود الخلاص القديمة، من خلال استعادة تقاليد مختلفة من التراث الديني في إسرائيل. مُحرِّرٌ، يمكننا أن نعتبره النبي الذي جمع هذه الآيات، إن كان الشفهيّة منها أو المكتوبة، ووضعها ورتّبها وفقًا لتصميمه، وذلك بهدف زيادة ثقة الشعب بالأمانة الإلهيّة وإعادة تحريك عمليّة الالتزام بالعهد مع الله.

في قلب المجموعة (٥٦-٦٦)، وضع النبيّ-الكاتب نشيدًا يتعلّق بسيرته الذاتيّة، فيه يحتفل بدعوته الخاصَّة ويعرض مهمّته كمؤازرٍ للشعب. من خصوصيّات هذا النص، أنّه يكشف عن وجه "مشيحٍ" كهنوتي، أيّ كاهنٍ مكرَّسٍ بالمسح، مارس دوره الطقسيّ، وكرسولٍ للسلام، مهمَّة إعلان "اليوبيل" الجديد، كسنةٍ رضًا أرادها الربّ.

٢. تصميم النصّ

لا يقتصر النصّ على رواية دعوة النبي كما في أش ٦: ١-١٣، بل بالأحرى على نشيدٍ لسيرته الذاتية ولتكريسه على غرار نشيد عبد يهوه المتألّم في ٤٩: ١-٦: "إنّ الربّ دعاني من البطن وذكَرَ اسمي من أحشاء أمّي... " (آ ١). إستعادة أسلوب نصّ عبد يهوه المتألّم يمكنه أن يكون دليلاً على رباطٍ لاهوتيّ: يشعر نبيّ ما بعد المنفى أنّه يعيش في شخصه مواصلة المهمّة النبويّة القديمة والفريدة من نوعها؛ في ظرفٍ ملموس في عصره، يختبر النبي الدعوة الإلهيّة ويفهم الدور والهدف الذي من أجلهما دُعي. ألّف هذا النشيد بمهارة فنّان كي يرسم الخطوط العريضة لمهمّته والمضامين الأساسيّة لتبشيره. إنّ التحليل الدقيق للنصّ يكشف عن تنظيم أدبيّ مُتقَن للمواضيع وعن بنيةٍ شاملة تساعد القارئ كثيرًا على فهم رسالة النصّ.

يمكن تقسيم النشيد كلّه بسهولة إلى قسمين: القسم الأول يشمل الآيات ١-٣ ويصف معنى التكريس، في حين أن القسم الثاني مع الآيات ٤-١١ يوضح مضمون البشارة.

يقدِّم القسم الأول، الذي يبدأ باستحضار الروح الإلهي، عَمَلَين للربّ مترابطَينِ بشكلٍ وثيق، ومُوجَّهين مباشرةً إلى الكاتب نفسه (مسحني – أرسلني). بذلك، يتركّز كلّ الاهتمام على رسالة النبيّ التي توصف بسبعة مهامٍ متتابعة لديها نفس الوزن النحوي، الذي يستدعي الوحدة المتناسقة الأجزاء:

١. لأبشِّر الفقراء؛
٢. أجبر منكسري القلوب؛
٣. أنادي بإفراجٍ عن المسبيين؛
٤. لأعلن سنة رضًا عند الربّ ويوم انتقامٍ لإلهنا؛
٥. أعزّي جميع النائحين؛
٦. لأفرِّح نائحي صهيون؛

٧. لأمنحهم...

يأتي العنصر السابع، في رأس القائمة، موسَّعًا في قائمةٍ جديدة، ذات بنيةٍ ثلاثيَّة تعلن عن تغييرٍ عميق، مناقضًا حقائق ثلاثة سلبيّة وثلاثة أخرى إيجابيّة:

١. التاج بدل الرماد
٢. زيت الفرح بدل النوح
٣. حلَّة التسبيح بدل روح الإعياء

إضافةً إلى ذلك، يتميّز هذا القسم الأوّل من النشيد بتضمين كلمة الروح: "روح الربّ عليَّ (آ ١)...روح إعياء (آ ٤)".

للتعبير الأخير في الآية ٣ دورٌ يربط القسمين في بنية النشيد: يُنهي القسم الأوّل، متناولاً بعد العناصر اللغوية الواضحة في اللغة العبريّة، مع إعلان الاسم الجديد للجماعة، التي من شأنها أن تكون وفيّة، ويقدِّم القسم الثاني، مسبِّقًا موضوع العدالة والصورة النباتيّة للغرس النَضِر.

بنية القسم الثاني أكثر تعقيدًا وتفصيلاً. بادئً ذي بدء، نستطيع أن نرى ثلاثة أقسام منفصلة عن القسم المركزيّ الذي يختلف بشكلٍ ملحوظ عن القسمين الآخرين، لأنه يُدخِل مباشرة كلام الربّ:

القسم الأوّل: ٤-٧ (جديد إعادة البناء)؛
القسم الثاني: ٨ (آية إلهيّة مُصادِقَة)؛
القسم : ٩-١١ (فرحة إعادة الخلق).

يتناقض القسمين الآخرين مع ضيق الجزء الوسطيّ، فهما أكثر تطورًا وتنظيمًا بطريقة متناسقة. في الواقع، يتكوّن القسم الأوّل والثالث من بنية متراكزة. يتميّز مركز كلّ قسمٍ بشكلٍ واضح ومختلف، بينما المعطيات الأساسيّة في كلّ قسمٍ فهي ملفتة للنظر بسبب الاتصالات اللغوية فيما بينها: في القسم الأوّل، يتمّ تحديد الفرق بالانتقال من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطَب، للعودة إلى صيغة الغائب، ويتمّ ارتباطه من خلال مفهوم الخلود (عُلَم)؛ بيد أنّ في القسم الثاني، يأتي في الوسط كلام الربّ بصيغة المتكلِّم، على فم الكاتب نفسه، والذي يختلف عن القسم الثالث المرتبط بمفهوم الزرع (زِرَع)، والذي يتمّ فيه الانتقال من صيغة الغائب إلى صيغة المتكلِّم، للعودة إلى صيغة الغائب.

هنا نوضح بنية هذا القسم من النشيد بكامله:

القسم الأوّل:

آ ٤ (**هم**) "يبنون أخربة الماضي..."

آ ٥-٦ (**أنتم**) "تدعون كهنة الربّ..."

آ ٧ (هم) "فرحٌ أبديّ يكون لهم"

القسم الثاني: آ ٨ (المركز: كلام الربّ)

القسم الثالث:

آ ٩ (**هم**) "ستُعرف ذريَّتهم في الأمم..."

آ ١٠ (**أنا**) "أُسَرُّ سرورًا في الربّ..."

آ١١(**هم**) "كالأرض التي تُخرجُ نباتها..."

٣. مهام المكرَّس السبعة

يبدأ النشيد بعبارةٍ إحتفاليّة وقويَّة: "روح الربّ عليّ". يتحدَّث الكاتب عن نفسه ولا يتردَّد أن يتكلَّم عن علاقته الوثيقة بعمل الله وروحه (رُوَح): الصيغة المستخدمة هنا تنشء ارتباطاً مع موضع نشيد عبد يهوه المتألّم، ولكنّه يشير أيضًا إلى نبوءة ما قبل المنفى، للعودة إلى المظاهر الأكثر قدمًا للنبوءة في العالم الكتابيّ. في كلام التولية، الذي يُذكِّر بالنشيد الأوّل لبعد يهوه المتألِّم، يقدّم الربّ الذي اختاره، قائلاً: "قد جعلتُ روحي عليه" (أش ٤٢: ١). عارض النبي ميخا المشعوذين في عصره مطالبًا لنفسه بالوحي الإلهيّ: "لكنّي امتلأتُ قوَّةً (بروح الربّ) وحقًّا وبأسًا لأخبِرَ يعقوب بمعصيته" (مي ٣: ٨). تماشيًا مع هذه النصوص، يقدِّمُ كاتب أش ٦١ نفسه، ممعلنًا بشكلٍ احتفاليّ أنّه هو المرسل من الله، وبالتالي، يميِّز ضمنيًّا نفسه عن آخرين، ويؤكِّد بأنّه حامل الكلمة الإلهيّة، كما رنَّم داود ("روح الربّ تكلَّم بي وكلمته على لساني": ٢ صم ٢٣: ٢) وكما يُروى عن القديم بلعام ("نزل عليه روح الله": عد ٢٤: ٢).

كيف يتجاسر الكاتب أن يقول ذلك على وجه اليقين؟ يُجيب هو نفسه: "لأنّ الربّ مسحني". يفسِّر الكاتب، في الواقع، هبة الروح ويربطها بالمسحة الكهنوتيَّة: قد تمّ تكريسه بالزيت، وبالتالي، من الواضح أنّ الروح قد حلَّ عليه. إذا كان، في العصور القديمة، هذا الدهن سمةً خاصّة بالملِك، أصبحَ بعد نهاية الملكِيَّة ميزةً حصريَّة

للكهنوت. كان يتم مسح عظيم الأحبار كحدثٍ "أسراريّ" للنعمة التي تَسِمُ بداية مهمَّةٍ عظيمة جدًا تشبه تنصيب الملك على عرشه (راجع خر ٢٩: ٧؛ ٣٠: ٢٢-٣٣).

في اللغة العبرية يُستخدم فِعل "مَشَح"، الذي منه استُخرج مُصطلح "المسيح"، أي "الممسوح": هذا كان عنوانًا مَلَكيًّا نموذجيًا، نُسب إلى الكهنة بعد المنفى. ولذلك، فإنّ ما يحمل الشعب على الرجاء ويعطيه الفرح، والحريّة، والتعزية، والعدالة، يُدعى بالمسيحانيّة الكهنوتيّة. في حقبةٍ عصيبة، فيها يجب إعادة بناء كلّ شيء، كان دهن عظيم الأحبار محفوفٌ بالمستقبل المشرق الموعود للمدينة وللشعب في خدمة العهد".

وفقًا للتقاليد الدينيّ القديم، كانت مهمّة الكاهن الإسرائيليّ الرئيسيّة الحفاظ على كلمة الله وصَون العهد لتلقين مراسيم وشريعة الله لإسرائيل (راجع تث ٣٣: ١٠). وفيًّا لهذه المهمَّة، عظيم الأحبار، كاتب هذا النشيد، يقدِّم ذاته كممسوح من الروح ومكرّس ليكون نبيًّا، أي الناطق باسم الله ككاهن، ووسيطه ليحقِّق في الظروف التاريخيّة الملموسة، مشروع الله الخلاصي والعادالة. يرى الكاتب ذاته منغمسًا بعمق في هذه المهمَّة، وعلى هذا الأساس وضع الخطوط العريضة لبرنامج مهمّته، والذي يتضمّن سبعة مهام.

٣. ١ تبشير الفقراء

"أرسلني لأبشِّر الفقراء" (٦١: ١). الفقراء هم أعضاء الجماعة الحقيقيّة، التي تعاني الاكتئاب، واللامعنى، والابتذال، والمرسل مدعو لإعادة إحياء هذه الجماعة، وإلى نقل البشرى السارّة لأولئك الناس المكتئبين.

٣. ٢ جبر منكسري القلوب

هناك أناس قلوبها ممزّقة لأنّ آمالهم تبدّدت ورغباتهم تبخّرت كالدخان، هم مجروحون في أرواحهم وأجسادهم، ومهمّة المكرَّس هي جَبر هذه الجراح.

٣. ٣ المناداة بالإفراج عن المسبيين

الإعلان ليس فقط لأولئك الذين عادوا أصلاً إلى أورشليم، ولكن يبدو أنّ الكاتب يفكِّر أيضًا بأولئك الذين بَقوا في بابل، ومهمّته هي إعادة جميع السجناء. لكن ربما كان يفكِّر في شيءٍ آخر أكثر من ذلك، وهو التخطيط لتخليص أولئك الذين اضطرُّوا لبيع أنفسهم لوفاء الديون. في الواقع، يردِّد المرسَل ما جاء قبلاً: "أرسلني".

٣. ٤ تخلية المأسورين

كان يتمّ تخلية السجناء من الزنزانة المظلمة في وضح النهار. عندما يتكلّم أشعيا الثالث عن المأسورين، يقصد بهم الخلاص الشامل الذي لا يتجزأ ويطال شعب الله بأكمله، جسديًّا وروحيًّا، فرديًّا وجماعيًّا.

٣. ٥ إعلان سنة رضًا عند الربّ

سنة الرضا عند الربّ هي اليوبيل، إنّه طقس تقليديّ في إسرائيل، مدوَّنٌ في سفر الخروج، في سفر تثنية الاشتراع، وخاصَّة في سفر اللاويّين في الفصل ٢٥، إنّه تقليدٌ كهنوتيّ، وكاتب هذا النشيد ينتمي إلى هذا التيّار. تقليد اليوبيل الكهنوتيّ ينصّ أنه في السنة الخمسين يُسمع صوت البوق الرسمي "يُوبِل"، قرن الكبش الذي يعطي اسمه لليوبيل، وذلك للإشارة إلى السنة الاستثنائية التي يتم فيها عودة الأراضي إلى أصحابها الشرعيّين، ويحرَّر العبيد من أسرِهِم. ربما لوقتٍ طويل تمّ التخلّي عن هذه الممارسة؛ في فترة المنفى بالطبع، ولكن ربّما في القرون الأخيرة قبل المنفى، بسبب وضع ملوك إسرائيل ويهوذا غير الأخلاقي، ربما كانت هذه الممارسة لم تطبَّق قط. لا ننسى، في الواقع، اتّهامات أشعيا ضدّ الإقطاعيّين، والمستولين على الحقول والمنازل؛ كانت تمامًا ضدّ هذه العقليّة التي أنشأت اليوبيل. من الواضح، أنّه في حالة الفساد، لم يتم تطبيق هذه العادة الدينيّة، أصبحت مجرّد مثاليّة لا تتحقّق، ومن المرجّح أنّه، بعد أن غاب لسنواتٍ عدّة، يقول كاتبنا في نهاية المطاف: لقد وصلتُ أنا، في هذه الحالة، مُرسلٌ من الربّ، لأعلن للملأ اليوبيل، لإصلاح الأخطاء، لإرجاع الأرض لأصحابها الشرعيّين، للإفراج عن السجناء، وإعطاء الحريّة للذين فقدوا كرامتهم الشخصيّة لأنهم سحقوا بسبب القمع والظلم الاجتماعي السياسي والعسكري.

يتحدّث أشعيا الثالث عن مهمّته الخاصّة كمهمَّةٍ يوبيليّة، بمعنى أنّه يجب تهيئة مناخ الإخاء والحريَّة قبل المباشرة بأيّ عمل. هذا العام اليوبيلي هو عام الرضا، وهو اليوم الذي فيه سيطالِب الربّ بحقوقه، أي يضع حدًا للظلم.

٣. ٦ إعلان يوم الانتقام

يُستخدم "الانتقام" دائمًا تقريبًا للإشارة إلى الله الذي يُعيد قوة الخلاص التي ضعفَت أو جُرحَت (أش ٣٤: ٨؛ ٥٩: ١٧). تستند بعض الترجمات على الجذر الأوغاريتي الذي يعني "تخلية"، الذي يفسّر أيضًا استعمال الفعل في الترجمة السبعينيّة وفي لو ٤: ١٩.

٣. ٧ تعزية جميع النائحين

هذه هي اللغة التي ورثها الكاتب عن بداية أشعيا الثاني (أش ٤٠: ١)، حيث يشعر القارئ باستمرار التعزية. تتضاعف المهمّة السابعة، التي أُرسل من أجلها النبي، في ثلاثة صور: الرب أرسلني "لأمنحهم التاج بدل الرماد وزيت الفرح بدل النوح وحلّة التسبيح بدل روح الإعياء". تتميّز نقطة الانطلاق بالرماد، ربّما رماد المدينة المحترقة. لكنّ الرماد هو علامة الندم وفناء كلّ الأشياء. كلّ شيء أصبح بعد الآن رمادًا: ثوب الحداد لأولئك الذين فقدوا أحباءهم، فقدوا الأمل بالحياة وعاشوا بروح الكئابة. فقط وجود روح الله هو الذي يبدِّل روح هذه الحالة المحزنة، ويجلب التاج، وزيت الفرح وحلّة التسبيح؛ يُدخل العيد بدل حالة الحداد وأغراسًا للربّ يتمجَّدُ بها". يعودون ليكونوا تلك الغابة النضرة. كان هناك حريقٌ، ودمارٌ. بقيت أشجارٌ قليلة، حتّى أنّ الأطفال يمكنهم أن يحصوها بسهولة، لكنها سوف تعود لتكون غابة خضراء.

٣. فوائد رسالة الممسوح من الربّ

في أش ٦١: ٤-٦: "يبنون أخربة الماضي ويشيِّدون مُدمِّرات قديم الأيّام ويُجدِّدون المدنَ المخرَّبة ومُدمَّرات جيلٍ فجيل. ويقفُ الأجانبُ ويرعونَ غنمَكُم ويكونُ بنو الغريبِ حُرّاثكم وكرَّاميكم. أمّا أنتم فتدعون كهنة الربّ ويُقال لكم خدَمَةَ إلهنا تأكلون غنى الأمم وبمجدها تفتخرون".

هنا ينفتح الكاتب على المصطلحات الكهنوتيّة بشكلٍ عموميّ: كلّ الشعب سيصبح كهنوتيًا، الأجانب يعطون مهمّة الرعاة والمزارعين، في حين أنّ الإسرائيليّين سيعطون مهمّةً كهنوتيّة. يعلن الكاتب، ربما دون أن يدري، وبشكلٍ موسّع ومبالغ فيه، عن كهنوت الشعب كلّه، يعلن عن نوعيّة وساطة الشعب مقابل جميع الأمم الأخرى مع الله، ولكننا نعلم أن هذا النص يُفسَّر على ضوء يسوع المسيح، ككلّ كتاب أشعيا، ولكن بشكلٍ خاصّ عندما نجد في الإنجيل أن المسيح نفسه قد قرأ هذه الصفحة في بداية رسالته في مجمع الناصرة، وعندما طوى السِفرَ بعد قراءة هذه الكلمات بالذات قال: "اليوم تمّت هذه الآية بمسمعٍ منكم". كان أشعيا الثالث يتحدَّث عن نفسه ، ولكن الله الذي ألهم هذا الكاتب يريد أن يتحدث عن يسوع المسيح، وعندما قرأ يسوع النصّ، ترك سكّان الناصرة مندهشين لأنّه قال: هذه الأمور تُقال عنّي، أنا هو الممسوح، أنا هو المرسَل مِن الربّ لأعلن سنة الرضا، يوبيل الفداء الكبير. أنا أشير إلى يوبيل الخلاص، والحرية، والعدالة والخلاص. حضوري هو الخلاص، واليوم هذه الكلمة تتحقّق؛ كانت قبلاً نبوءَة، أمّا بشخصي فهي حقيقة.

هنا نرى كيف أنّه من خلال نص أشعيا الثالث، المختار في تلك الحقبة التاريخيّة، علينا نحن أن نعبر إلى يسوع، مركز وأساس كلّ إيماننا، لنصل فيما بعد إلى واقعنا اليوم، الذي يُعبَّر عنه حقًا، من خلال حياتنا كأشخاص ينتمون إلى المسيح ليكونوا كهنة. والرسالة التي أوكِلت إلى أشعيا الثالث، وبلغت ملئها في يسوع، هي رسالتنا التي علينا أن نقرأها "بصيغة المتكلِّم"، لأنّ كلّ واحدٍ منا يمكنه أن يقول: لقد كُرِّستُ بالمسحة، روح الربّ عليّ، أرسلني لأنظِّم عام الرضا، أي حياتي، تاريخ الكنيسة، اختباري المسيحي.

نجد في ٦١: ١٠ نصًّا جميلاً يعبِّر عن حماس النبيّ. وضعت الليتورجيّا هذا النصّ على لسان العذراء مريم، والدة الله: " أسرُّ سرورًا في الربّ وتبتهجُ نفسي في إلهي لأنَّه ألبسني ثياب الخلاص وشَمَلني برداء البرّ كالعريس الذي يتعصَّبُ بالتاج وكالعروس التي تتحلَّى بزينتها". رداء البرّ هذا ربما كان الزيّ الرسمي للمسحة الكهنوتيّة، ولكن في القراءة المسيحيّة الرمزيّة أصبح يدلّ على العدالة، أي الطبيعة الجديدة المحرَّرة من الخطيئة الأصليّة.

لكن من يمكنه أن يقول هذه الكلمة إلى الملأ؟ وحدها التي ارتدت نعمة الربّ بالتَّمام؛ لكن يمكننا نحن أيضًا أن نقول ذلك، لأن رداء الخلاص هو ثوب معموديّتنا الأبيض، هو تعبيرٌ عن صلاة مريم، صلاة النبي، وصلاتنا: "تعظّم نفسي الربّ وتبتهج روحي بالله مخلِّصي" (لو ١: ٤٦ب-٤٧).

تعبِّر هذه الكلمات عن مجّانيّة وجمال حبّ الله لإسرائيل. ولكن يمكنها أيضًا أن تعرب عن مجّانيّة وجمال حبّه تجاهنا. في الواقع، تُفسَّر الدعوة الكهنوتيّة فقط انطلاقًا من مجانيّة حبّ الله، ومن روعة هذا الحبّ. يثق الله بالمدعو ويكلّفه برسالة، ويعطيه الفرح: "أسرُّ سرورًا في الربّ" (آ ١٠)، ليس الداخلي فقط، بل الخارجي أيضًا، الذي ينطبع على الوجه ويلفّ الحياة بأكملها.

"شملني برداء البرّ كالعريس الذي يتعصَّب بالتاج". على مثال المسيح، يكرِّس الكاهن حياته كلّها من أجل الكنيسة، كلّ ما يمكنه أن يقدِّم من حبّ. هنا يكمن سبب التكريس الكهوتي. ليس تكريسٌ أيًّ كان. ولا ينطوي على زهدٍ بسيط. إنّما هو تكريس إنجيليّ. من خلال التكريس، يماثل نمط حياة الكاهن نمط حياة المسيح.

يقول النبي في ٦١: ١١: "كما أنّ الأرض تُخرج نباتها والجنَّة تُنبتُ مزروعاتها كذلك السيِّد الربّ يُنبتُ البرّ والتسبحة أمام جميع الأمم". صورة الزرع، العزيزة على قلب أشعيا الثاني، انتقلت أيضًا إلى تلميذه، لأنّ الربّ سينبتُ حقًا البرّ. عندما يكتب القدّيس بولس إلى أهل روما ويتكلّم عن عدالة الله، فهو يفكّر بهذه النصوص وبالعدالة التي نبتت في شخص يسوع، في عمله الفدائيّ، في حدث عمادنا الذي فيه نشارك في عمل الخلاص. العدالة نبتت في داخلنا، بواسطة يسوع المسيح، الممسوح، مُكرَّس الربّ.

الخلاص الذي اختبره النبيّ ينتقل إلى كلّ إسرائيل: يُصوَّر الشعب كالأرض التي يُنبت فيها الربّ، لا المنتوجات الزراعيَّة، بل البرّ والتسبيح اللذين يظهران أمام كلّ الشعوب. يشتمل العهد الأبدي الذي يقطعه الله مع

شعبه على علاقةٍ زوجيَّة تنطوي على تغيير داخليّ عميق في الشعب. الأمم الأخرى هي شاهدة، وهي بدورها أيضًا، ولو بشكلٍ جزئي على الأقل، تشارك في هذا الوضع الجديد الذي سيُطبَّق على إسرائيل.

٤. "اليوم قد تمّت هذه النبوءة"

يوجد هذا اللاهوت الكهنوتي القديم، وبشكلٍ هام للغاية، في بداية رسالة يسوع العلنيَّة في مجمع الناصرة عندما قرأ نص أش ٦١ وأعلن عن تمامه في شخصه هو (لو ٤: ١٤-٢١). إن كان صحيحًا بأنّ أشعيا الثالث ساهم في فهم دور المسيح في تاريخ الخلاص، فإنّه أيضًا صحيح بالنسبة لنا نحن المسيحيَّين بأنّ قصّة يسوع جعلتنا نفهم تمامًا ما أراد أن يقوله النبي. حضور يسوع، من حيث إنّه ابن الله، يفتتح عام الرضا ويعلن عن إنجيل الخلاص. رسالته على وجه التحديد هي تطويب الفقراء، والنائحين، وأنقياء القلوب: يظهر يسوع كالذي يحرِّر الأسرى ويغفر للخطأة، قالبًا حالة الإنسان رأسًا على عَقَب وبشكلٍ جذريّ. في سوع تتحقّق الوساطة الكهنوتيّة الحقيقيّة، ومن خلاله يُحتفل بعُرس الشراكة الأبديّة بين الله والإنسانيّة. بدمه، عقد الله عهدًا أبديًا مع شعبه وجعله شعبًا "كهنوتيًّا"، كي يكون سرّ خلاصٍ للعالم أجمع.

خلاصة

الثقة التي تنبعث من كلمات أشعيا الثالث، يمكن تطبيقها على مسيرة إيمان الفرد الداخلية، ولكن ليس حصريًا، لأننا يجب ألاّ نغفل العامل الاجتماعي، الجماعي: في الواقع، إنّ سعادة الفرد لا يمكنها أن تُفصل عن سعادة الآخر وعن سعادة الجماعة بكاملها.

لذلك لا يكفي أن نفسّر فقط هذه المقاطع كدعوة لليهودي المؤمن أن يحافظ على الرجاء: كلمة الله هي دومًا "جماعيَّة" وتنطوي على احترام مقتضيات العدالة والتضامن. رسالة الرجاء التي يُطلقها النبي لا يمكن أن تقتصر على قراءة حميميَّة وفرديَّة فقط، لكنها ترافق مستلزمات التحوُّل – الشخصيّة والاجتماعيّة معًا – كشرطٍ أساسيّ لإعادة بناء علاقات المساواة والعدالة.

بُعد الفرح، الغائب في كثير من الأحيان في الكتاب المقدّس، والاختبار غير المألوف في حياة المؤمنين ورجال اليوم، لا يزال علامةً لحضور الله ولمشيئته. إنّه الكلمة الأخيرة التي تختم كتاب أشعيا بهذا الوعد: "كما أنّ السماوات الجديدة والأرض الجديدة التي أصنعها تدوم أمامي، يقول الربّ، فكذلك تدوم ذرّيتكم واسمكم" (أش ٦٦: ٢٢).

شجاعة الرجاء أبعد من كلّ رجاء، خصوصًا في الأوقات المظلمة والخربة، لا يعني القدرة على عدم الخلط بين الرجاء وبين الوهم واللاوعي، لكن الالتزام بالغوص في الواقع الحقيقي، وعدم الهروب منه، حتى ولو كان من الصعب

إعادة بنائه بواسطة معالِم جديدة وأكثر إنسانيّة. فهل لدينا الإيمان الكافي بأن الله قادرٌ على كلّ شيء؟ حتّى عندما تنقطع كلّ سبل النجاة؟

هذه الفكرة، التي يصرّ عليها أشعيا الثالث، عن الإله الذي لا يتوقّف عن مطاردة الإنسان لإنقاذه من انحرافاته ومن ابتعاده عن الربّ ليبيّن له الطريق الحقيقيّ للسعادة، يقلب رأسًا على عقب صورة الله القاضي والمعاقِب، والمهدِّد، ليعطي المؤمن الصورة الحقيقيّة للإله القريب، والتي تنجلي بشكلٍ ساطع، في وجه يسوع المسيح.

موقف الفرح، ليس فقط مظهرًا من مظاهر الامتنان، ولكنّه حالة الرضى الدائم في الحياة والمقدرة على اكتشاف علامات حضور الله في أحداث كلّ يوم. السلطة الملقاة على عاتق الكاهن للتفكير في الآخرين، حتّى أولئك الذين يستثنيهم المجتمع بشكلٍ بديهي، يعتبرون من نفس الدرجة كالآخرين، لأنّ الله يريد أن يخلص الجميع ويعيشوا معًا سعداء. هذا ما نحتاج إليه اليوم نحن أيضًا، في عالِم كثُرت فيه الانشقاقات الكبيرة، والجدران التي تفصل الإنسان عن أخيه، والعداوات التي لا نهاية لها، والانقسامات في كلّ ميدانٍ من ميادين الحياة، نحتاج إلى تذكيرٍ قويّ وحيوّي بعلاقتنا بالله التي هي أساس رسالتنا و"حجر زاويتها".